

العلاقة بين النظرية والمنهج في البحث الاجتماعي

د.نصر عاشور الشيباني

كلية الآداب/جامعة طرابلس

تمهيد

تسعى هذه الورقة إلى المساهمة في توضيح طبيعة العلاقة بين النظرية والمنهج في البحث الاجتماعي. وإذا كان التفكير في قضايا الاجتماع الإنساني ومشكلاته قديماً وإن النشاط البحثي في العلوم الاجتماعية القائم على استخدام المنهج العلمي يعتبر حديثاً نسبياً على الرغم من أن الجذور الأولى للتفكير والبحث العلمي تمتد إلى العلامة العربي عبدالرحمن بن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي . فابن خلدون - الذي يعتبر المؤسس الأول لعلم الاجتماع - هو الذي وضع قواعد منهج الملاحظة وتعقب الظاهرة الاجتماعية في المجتمع الواحد وغيره من المجتمعات، وذلك على أنقاض الطريقة التاريخية القديمة، سابقاً بذلك كل من جاء بعده (الكردي 1984، 127+) غير أن المساهمة المنهجية الرئيسية لابن خلدون في هذا السياق تتمثل - في رأينا - في إدراكه وإعلانه لحقيقة أن الظاهرة الاجتماعية تخضع لقانون مثلها في ذلك مثل كل ظواهر الكون الأخرى سواء كانت مادية أو حيوية مما جعل الظاهرة الاجتماعية تخضع للبحث العلمي مثل كل الظواهر الأخرى في هذا العالم (حسن، 1998، 74+). ثم تطور هذا النشاط البحثي العلمي الاجتماعي على يد الكثير من العلماء والباحثين مثل أوجست كونت ودور كايم وفيبر وجيلبرت وبارسونز وبللاك والخشاب والتير... إلخ، حتى وصل إلى المستوى الذي عليه في الوقت الحاضر من توفر الكثير من شروط الدراسة العلمية القائمة على استخدام المنهج العلمي.

لعل ما يميز البحث الاجتماعي المعاصر -بالإضافة إلى ما اكتسبه من تطور عبر الزمن- هو الاتجاه نحو التفسير العلمي المنظم بدلاً من الوصف العمومي مستعيناً على ذلك بالتوسع في استخدام الإحصاء وخدمات الحاسوب (التير، 1999، 36) (C Babbie, 1983، 27). لقد أدى هذا الارتفاع في درجة التقنيين في البحث الاجتماعي إلى زيادة أهمية نتائج الدراسات الاجتماعية وبالتالي أهمية العلوم الاجتماعية في هذا العصر الذي أصبحت فيه سعادة الناس تعتمد على تطبيق الحقائق العلمية في الحياة.

لقد أصبح علم طرق البحث أو علم مناهج البحث يتمحور حول السؤال: كيف نعرف المزيد حول هذا العالم الذي نعيش فيه؟ بدلاً عن السؤال: كيف نعرف هذا العالم الذي نعيش فيه؟ وذلك نتيجة للزيادة الهائلة في معرفة الإنسان المتراكمة حول هذا العالم بداية من المعرفة الغريزية، والمعرفة الغيبية، والمعرفة الحسية، والمعرفة الفلسفية، إلى المعرفة العلمية أخيراً (حسن، 18، 1998، التير، 14، 1999) على الرغم من أن الإجابة المباشرة عن هذين السؤالين هي دائماً واحدة ألا وهي: البحث العلمي وما يشتمل عليه من خطوات واليات متعددة تهدف إلى الوصول إلى حقيقة يدعمها دليل ذو طبيعة منطقية (أي واضح بذاته)، وأساس واقعي (أي يؤيده الواقع أو التجربة)، ويعرف هذا الدليل بالدليل العلمي (Babbie, 1983, 27). لذلك نستطيع القول إن مركب العلم يتكون من نظرية ومنهج يتفاعلان معاً في نشاط بحثي لتقرير الحقيقة في هذا العالم المركب وفقاً لتوفر دليل علمي. ويستطيع القارئ أن يدرك بسهولة الطبيعة الواسعة للنظرية والمنهج في البحث العلمي وهو ما يتفق مع طبيعة العلم نفسه من حيث انه وسيلة وليس غاية. كما أن هناك من الباحثين من يجعل النظرية مرادفة للعلم والعلم هو النظرية وأحياناً أخرى تكون النظرية هي المنهج (الحوات، 20، 1998). وسوف نتناول موضوع هذه الورقة الذي هو الكشف عن طبيعة العلاقة بين النظرية والمنهج في البحث الاجتماعي من خلال المزيد من المناقشة لمركب البحث الاجتماعي وآليات عمله مع توظيف مباشر للنموذج الاستنباطي والنموذج الاستقرائي في هذا الجهد المتواضع لتوضيح بعض من خيوط هذه العلاقة التبادلية بين النظرية والمنهج في البحث الاجتماعي. وفي الختام أسجل كل الشكر لكل من الدكتور: عقيل البريار والدكتور: مصطفى التير والدكتور: عمر هيبه على تفصلهم بقراءة مسودة هذا العمل والذي كان لملاحظاتهم القيمة وتشجيعهم المتواصل أكبر أثر في الوصول بهذا العمل هذا المستوى ولكن النقص والأخطاء فهي مسؤوليتي وحدي.

العلاقة بين النظرية والمنهج في البحث الاجتماعي :

يوصف العلم بأنه منطقي وتجريبي. أي أن العلم مركب من جانبين: المنطق والملاحظة، بحيث إن أي فهم علمي لظاهرة معينة يجب أن يكون له معنى من ناحية وأن يتفق مع ما يشاهد في الواقع من ناحية أخرى. وتأخذ النظرية الجانب المنطقي في العلم بينما يهتم منهج البحث بجانب الملاحظة فيه (Gilbert, 1981). فالنظرية العلمية تتولى وصف العلاقات المنطقية التي تبدو أنها موجودة بين أجزاء الظاهرة بينما تقدم مناهج البحث الوسائل

والتقنيات التي تمكننا من ملاحظة العلاقات الموجودة فعلاً في العالم الحقيقي. وربما ندرك من هذه البداية البسيطة العلاقة القوية بين النظرية والمنهج في البحث العلمي. إلا أننا نحتاج للتعرف على خيوط هذه العلاقة إلى معرفة واسعة وعميقة بأساسيات البحث العلمي من جهة وبخصائص وقوانين الحياة في هذا العالم وما يرتبط بذلك كله من نسبية وتقريبية والقدرة على التطوير والتطور من جهة أخرى. فيجب أن تعرف مثلاً أن هناك فرقاً واضحاً بين النظرية العلمية وأشكال التنظير الأخرى، ومبدأ العلمية، والاتجاه نحو العلمية، وضرورة استخدام النظم التحليلية بدلاً عن الوصف العام وبناء النظرية والقدرة على توظيفها... الخ (Babbie, 1983, Miles, 2001).

إن النظرية العلمية هي التي تتناول الواقع الموجود و ليس الواقع الذي يستحسن أن يوجد و لهذا تختلف النظرية العلمية عن أشكال التنظير الأخرى مثل الفلسفة أو الاعتقاد، مع ملاحظة أن العلماء قد خلطوا لفترة طويلة بين الواقع وبين تخميناتهم لتفسير هذا الواقع من جهة وبين تصوراتهم لما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع من جهة أخرى إلا أن العلم الصحيح هو الذي يتناول الأشياء كما هي ولماذا؟

إن أي استنتاج علمي يجب أن يعتمد بالكامل على مقاييس متفق عليها، وإن هذا الاستنتاج العلمي لن يكون له أي معنى عام فيما وراء ذلك. فنحن لا نستطيع مثلاً المقاضلة بين عقارب الساعة إلا إذا اتفقنا على مقياس معين و لتكن السرعة هي هذا المقياس. فالعلم لا يستطيع مساعدتنا على معرفة الأشياء كما هي إلا من خلال مقاييس محددة. و لذلك فإن قدرة العلم -أي علم- على تحقيق أهداف العلم في الوصف والتفسير والتنبؤ تعتمد على تقدم القياس في هذا العلم (التير، 1999، 86).

وعلى الرغم من الأهمية المتزايدة للنظرية في البحث العلمي، كما تتضح من الزيادة الكبيرة في استخدام الباحثين لها في بحوثهم بشكل أو آخر (Welles and 1981, 106, Picou), فإن العلماء لا يتفقون على تعريف واحد للنظرية التي تتوزع على اتجاهات أساسية كثيرة (الحوات، 1997، ناصر، 2004). ولكن النظرية الاجتماعية قد تكون مدخلاً أساسياً لفهم الواقع الاجتماعي وإن هذا الواقع الاجتماعي هو المحك لمصادقية هذه النظرية من ناحية أخرى. كما أن النظرية هي مصدر للكثير من الأفكار وعامل توجيه وضبط لجوانب العملية البحثية حيث إن هذا الارتباط بالواقع هو الذي يجعل للنظرية الاجتماعية معنى (Miles, 2001, 3).

يجعل النظرية الاجتماعية، ليست فقط مجرد تاريخ محاولات التنظير لفهم المجتمع الإنساني، بل هي عملية ديناميكية مستمرة تفرضها الحاجة المستمرة لفهم هذا المجتمع الإنساني كما أن هذا من شأنه التقليل أيضاً من اتهام النظرية الاجتماعية بالجمود والمثالية الخيالية ويجعل منها وسيلة ايجابية في محاولتنا العلمية لزيادة فهمنا للعالم الاجتماعي (Caib,1997). لذلك فمن الممكن تعريف النظرية العلمية بأنها نسق تجريدي من العلاقات المترابطة والمتعلقة بظاهرة معينة (التير، 15، 1980، الحوات، 41، 1998). ويوضح لنا هذا التعريف للنظرية مدى العلاقة بين النظرية باعتبارها بناء منطقياً وبين المشاهدات التجريبية باعتبارها عنصراً أساسياً في بناء الدليل العلمي (الهامي، 19، 1994+).

ويدرس علماء الاجتماع الكثير من الظواهر الاجتماعية بقصد فهمها وتطوير الحلول المناسبة لها. وتقدم مناهج البحث لهؤلاء العلماء التقنيات البحثية التي تمكنهم من دراسة تلك الظواهر كما هي وليست كما قد تبدو لهم ولماذا؟. ولقد تقدمت الدراسة العلمية القائمة على المنهج العلمي في مجال العلوم الاجتماعية في الوقت الذي تتراجع فيه المعارضة القديمة من داخل وخارج العلوم الاجتماعية لإمكانية استخدام المنهج العلمي في مجال البحث الاجتماعي (Babbie,1983,27). إننا نستطيع أن نقول اليوم بأنه إذا كان لا علم بدون منهج بحث فإن منهج البحث هو المنهج العلمي الذي أحدث اكتشافه نقلة نوعية في التفكير والحياة الإنسانية ولقد لخص لنا المنطقي برتراندرسل هذه النقطة النوعية في عبارة موجزة هي: الانتقال من التأمل إلى التحكم (حسن، 17، 1998).

ويتميز المنهج العلمي - باعتباره الطريق الذي يؤدي إلى الكشف عن حقيقة الظاهرة بحيث تتحدد العلاقات بين المتغيرات التي تتكون منها هذه الظاهرة - بعدد من الخصائص لعل أهمها انه منهج كشف وتحقق في آن واحد والموضوعية والثبات والجمع بين الفكر والملاحظ أي بين الاستنباط والاستقراء ووجود مراحل عمل واضحة (التير 1997، حسن، 1998) ويتطلب البحث العلمي وضع تصميم ورسم استراتيجية بحثية تشمل جميع خطوات الدراسة العلمية يتم وضعها في خطة بحث قابلة للتنفيذ على أساس ثلاثة أعمدة رئيسية هي:

➤ أولاً: النظرية:

يهتم الباحث عادة بجانب معين من الواقع وذلك لان البحث العلمي لا يقع على فراغ أو عدم . فيقوم الباحث بتحديد مشكلة بحثه وصياغتها في مقولة أو مقولات نظرية. ويمتد استخدام النظرية العلمية في البحث الاجتماعي من هذه النقطة إلى جميع الخطوات

التالية في البحث. ويجد القارئ خير مثال على توظيف النظرية وممارسة التنظيم في البحث الاجتماعي في ما فعله ستوفر في دراسته للعوامل الاجتماعية المؤثرة في الاستقرار الأسري في المجتمع الأمريكي في ثلاثينيات القرن العشرين حيث قاده تفكيره الناقب إلى افتراض وجود علاقة بين الانكماش الاقتصادي الذي ضرب الولايات المتحدة الأمريكية و أوروبا في آخر عشرينيات وأوائل ثلاثينيات القرن العشرين وبين الاستقرار الأسري (Stouffer, 1937, 139) وفي ما فعله التير في دراسته لظاهرة الغش في الامتحانات بين الطلاب الأمريكيين في سبعينيات القرن العشرين، حيث افترض علاقة هذا الشكل من الانحراف الاجتماعي بمركز الطبقة الاجتماعية (التير، 1980، 28).

➤ ثانياً: الإجرائية :

مهما كانت دقة ووضوح التحليل النظري ودرجة نجاحه في تحديد العلاقات بين متغيرات البحث بحيث تبدو منطقية ومقبولة، فإن الباحث مازال يحتاج إلى اختبار نظريته تجريبياً. وبالتالي فإن الإجرائية تعني مجموعة الخطوات والإجراءات المكونة لاستراتيجية تحديد وكيفية قياس المتغيرات التي ستكون موضوع الملاحظة. ولتوضيح هذه النقطة نرجع مرة أخرى إلى ما فعله كل من ستوفر والتير في دراستيهما المشار إليهما سابقاً. فالذي فعله ستوفر عندما قرر دراسة العلاقة بين الاستقرار الأسري والانكماش الاقتصادي هو انه خطط لإجراء مسح اجتماعي واسع باستخدام عينة يفترض أنها تضم بعضاً من الناس الذين تزوجوا قبل وخلال وبعد الأزمة الاقتصادية، ولكن عندما فشل في الحصول على تمويل لدراسته عدل عن ذلك المخطط وتساءل عن إمكانية استخدام إحصائيات الزواج الرسمية لاختبار العلاقة المحتملة بين الانكماش الاقتصادي والاستقرار الأسري، وهو ما قام به بالفعل ستوفر لحسن الحظ (Stouffer, 1937, 140). كما أن التير قد قام- بعد صياغته للعلاقة بين الطبقة الاجتماعية وظاهرة الغش في الامتحانات في نموذج نظري قابل للاختبار- بالتخطيط لإجراء مسح اجتماعي لجمع البيانات اللازمة لاختبار هذا النموذج عن طريق العينة واستمارة الاستبيان (التير، 1980، 45+).

➤ ثالثاً: الملاحظة:

وتعني التنفيذ الفعلي للبحث حيث إن في هذه المرحلة تجري الملاحظة الفعلية من حيث النظر للظاهرة وإجراء قياسات لها. ولإتمام هذه الخطوة قد يلزم إجراء تجارب ومقابلات مع الناس وزيادة للشيء المطلوب ملاحظته. فمثلاً في حال مثال دراسة ستوفر

المشار إليها، فإن هذه الخطوة ترجمت عملياً بالغوص في إحصائيات الزواج الرسمية المنشورة، وعندما لم يجد كل البيانات المطلوبة في الإحصائيات الأمريكية، اتجه ستوفر إلى النمسا، لتوفر هذه الإحصائيات خاصة أن الأخيرة احترقت أيضاً بالانكماش الاقتصادي نفسه الذي ضرب المجتمع الأمريكي (Stouffer, 1937, 151). بينما قام التير بعملية جمع بيانات من طلاب عينة من المدارس الثانوية الأمريكية (التير، 1980، 63). ولقد أيد تحليل البيانات في دراسة ستوفر توقعه النظري و لكن عن طريق تجميع ووزن الأدلة على أساس الاتجاه الغالب للحوادث، بينما أيدت عملية تحليل البيانات في دراسة التير بعضاً من أركان النموذج النظري لهذه الدراسة و بشكل مباشر (التير، 1980، 109).

ويتحدد بناء على اتجاه حركة الباحث في بحثه لموضوع معين بين النظرية والإجرائية والملاحظة نوع نموذج البحث للمستخدم من حيث الاستنباط والاستقراء. فإذا كانت حركة الباحث تتدرج من النظرية إلى الإجرائية إلى الملاحظة فإن هذا يشير إلى النموذج الاستنباطي في البحث العلمي. أما إذا أخذت حركة الباحث الاتجاه من الملاحظة إلى النظرية فإن هذا يشير إلى النموذج الاستقرائي في البحث العلمي. ويجعلنا الشكل التتابعي للمراحل الأساسية للعملية البحثية (الهالي، 1994، 26، التير، 1999، 37) ننظر إلى كل من النموذج الاستنباطي والنموذج الاستقرائي في البحث العلمي على أساس أنهما يمثلان قواعد محددة للنشاط البحثي لقبول ورفض الأشياء بناء على توفر دليل ذي طبيعة منطقية وأساس واقعي ويعرف هذا الدليل بالدليل العلمي. وفي المقابل فإن العلاقات المتداخلة بين المراحل الأساسية للبحث العلمي - من حيث إن كل مرحلة هي نتيجة للمرحلة التي سبقتها ومقدمة للمرحلة التي تليها، أي أن هذه المراحل ليست مفصولة عن بعضها فصلاً رياضياً - تدعّم حقيقة أن العلاقة بين النظرية والمنهج في البحث العلمي هي علاقة تكاملية أو بالأحرى هي علاقة تفاعلية. ونريد باستخدام كل من النموذج الاستنباطي والنموذج الاستقرائي في البحث العلمي الكشف عن المزيد من أبعاد هذه العلاقة التفاعلية بين النظرية والمنهج في البحث الاجتماعي.

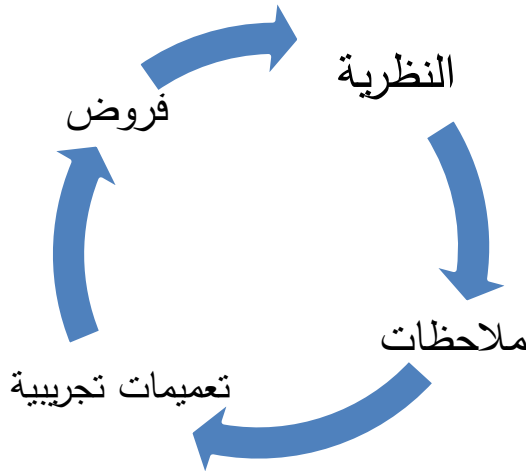
لقد ميّز فيلسوف العلم بفردج بين النموذج الاستنباطي في البحث العلمي والنموذج الاستقرائي في البحث العلمي على أساس أن النموذج الاستنباطي هو الذي ينتقل فيه الباحث من الكل إلى الجزء بينما النموذج الاستقرائي هو الذي ينتقل فيه الباحث من الجزء إلى الكل (Beveridge, 1950, 113). في النموذج الاستنباطي في البحث يبدأ الباحث باختبار

الموضوع منطقياً بقصد وضع فرضية (نظرية) لتفسير الظاهرة موضوع البحث. ثم يقوم الباحث بجمع البيانات أو الملاحظات لاختبار هذه الفرضية من خلال المقارنة بين الفرضية والبيانات بحيث يتوقف قبول الفرضية أو رفضها على درجة تطابق التوقع مع الواقع. أما في النموذج الاستقرائي فإن الباحث يبدأ نشاطه البحثي بملاحظة الواقع (الظاهرة) ليجمع بيانات أو ملاحظات حول الظاهرة موضوع البحث. ثم ينظر الباحث إلى الشكل العام الذي يأخذه توزيع هذه الملاحظات (خط مستقيم أو خط منحنى... الخ) ليستنتج من هذا تعميماً تجريبياً (تجريبي) لأن الملاحظات هي مصدر هذا النموذج العام لتوزيع هذه الملاحظات أو البيانات) عن طبيعة العلاقات بين متغيرات الظاهرة موضوع البحث. ويحتاج الباحث إلى المزيد من التجارب لتطوير هذا التعميم التجريبي ليأخذ شكل التفسير المنطقي أي يصل إلى بناء نظرية علمية (الهالي، 1994، 53). وإذا كان المنهج العلمي يجمع (كما سبقت الإشارة إلى هذا) بين الفكر والملاحظة أو بين الاستنباط والاستقراء، فإن ما نقوم به فعلياً في البحث العلمي لا يخرج عن الخطوات المنصوص عليها في النموذج الاستنباطي، أو في النموذج الاستقرائي حيث تتفاعل النظرية و المنهج في شكل تتابعي لا نهاية له. ومن خلال هذا التفاعل نرى عدة جوانب من هذه العلاقة التفاعلية بين النظرية والمنهج في البحث الاجتماعي. ففي النموذج الاستنباطي يستخدم البحث لاختبار النظرية بينما في النموذج الاستقرائي يستخدم البحث لتطوير النظرية من خلال تحليل بيانات البحث. فالعلاقة بين النظرية والمنهج هي في الواقع علاقة تفاعلية وحيوية مستمرة. وتمتد هذه العلاقة التبادلية بين النظرية والمنهج خلال كل خطوات البحث بداية من صياغة مشكلة البحث، إلى تحليل البيانات حيث لاحظ جيلبرت أن أفضل طريقة لتحليل البيانات هي استخدام نموذج في شكل نظرية أو في شكل عدد من الفروض في أي محاولة علمية لتفسير الروابط والعلاقات الداخلية بين الظواهر الاجتماعية (Gilbert, 1981, 3).

وإذا كانت هذه العلاقة التفاعلية بين النظرية والمنهج في البحث العلمي الاجتماعي ربما هي السبب الذي جعل الهالي (1984، 26) يضع المراحل الأساسية لعملية البحث الاجتماعي في شكل دائرة، تعكس علاقة التكامل بين جميع مراحل وعناصر البحث الاجتماعي، أي بين النظرية والمنهج فيه فإننا -ولنفس السبب- نعتقد إن النموذج الذي صور به والس (1971) هذه العلاقة التفاعلية بين النظرية والمنهج في البحث العلمي في شكل دائرة أيضاً يتحلى بدرجة عالية من المصادقية. ففي نموذج والس كما يتضح من الشكل رقم (1)

العلاقة بين النظرية والمنهج

تقود النظرية إلى الفروض، التي بدورها تقود إلى ملاحظات، والملاحظات تقود إلى تعميمات تجريبية تؤدي بدورها إلى تطوير النظرية. وهذه النظرية المتطورة تؤدي إلى فروض أفضل من شأنها أن تقود إلى ملاحظات أفضل تؤدي إلى تعميمات أدق تساهم في بناء نظرية أقوى وهكذا على نحو يعكس لنا بوضوح العلاقة التفاعلية المستمرة بين النظرية و المنهج في البحث العلمي كذلك الحاجة إلى بحث علمي مستمر لان العلم - على رأي برتراندرسل - تقريبي، ونسبي (حسن، 48، 1998).



الشكل رقم (1) العلاقة التفاعلية بين النظرية والمنهج في البحث العلمي

المراجع :

1. د.عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي. القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الثانية عشر، 1998.
2. د.عبدالله عامر الهمالى، أسلوب البحث الاجتماعي وتقنياته. بنغازي: منشورات جامعة قاربيونس، الطبعة الثانية، 1994.
3. د.علي الحوات، النظرية الاجتماعية: اتجاهات أساسية. مالطا: منشورات شركة الجا، 1998.
4. د.محمود سعيد الكردي، ابن خلدون: مقال في المنهج التجريبي. طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1984.
5. د.مصطفى عمر التير، مقدمة في مبادئ وأسس البحث الاجتماعي. طرابلس: المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، 1980.
6. د.مصطفى عمر التير، الغاية تبرر الوسيلة: دراسة اجتماعية لظاهرة الغش في الامتحانات. طرابلس: المؤلف، الطبعة الأولى، 1980.
7. د.مصطفى عمر التير، مقدمة في مبادئ وأسس البحث الاجتماعي. قبرص-ليماسول : شركة جديدة للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة، 1999.
8. د.سعيد ناصر، دراسات في نظرية علم الاجتماع. طرابلس: المؤلف، الطبعة الأولى، 2004.
9. Babbie,E.(1983)The Practice of Social Research .Belmont ,California :Wadsworth Publishing Company, Third Edition.
10. Miles,S.(2001) Social Theory in The real World.London:Sage Publications.
11. Craib,I.(1997) Classical Social Thery. Oxford : Oxford Uinversity Press.
12. Gilbert,G.N.(1981) Modeling Society :An Introduction to Log linear Analysis for Social Researchers .London: George Allen and Unwin.

Stouffer,S(1937)Effects of the Depression on the Family New .13
York: Free PRESS.

Beveridge,W.(1950)the Art of Scientific Investigation. New York: .14
Vintage Books.

Wallac,W.(1971) The Logic of Science in Sociology. New York: .15
Aldine.

Wells,R.and Picou,J.(1981)American Sociology : .16
Theoretical and Methodological Structures. Washington,D.C:
University Press of America.